مقتل القيصر واهل بيته

لما وصلت العائلة القيصرية الى اكاترنبرج كما تقدم في مقتطف فبراير كانت السلطة فيها في يد مجلس بلاد اورال وهو مؤلف من ثلاثين عضواً. ويد المجلس الاجرائي (او التنفيذي) وهو مؤلف من اعضاء قليلين. ويد اللجنة التي تقاوم المضادين والخارجين على الحكومة. وكان المرجع الاعلى لكل مجلس في موسكو ومنهُ تصدر الاوامر والنواهي مباشرة. وعند اللجنة جماعة كبيرة من العيارين لقضاء اغراضها اكثرهم من اسرى النمسويين الالمان ومن التت والصينيين وهم في الحقيقة جلادون عملهم قتل الذين يحكم عليهم بالقتل. ولجنة اكاترنبرج كانت من اقوى اللجان واقدر رجالها يورفسكي

لما رأى المجلس الاجرائي عطف الحراس على القيصر وعائلتهِ اوجس شرًّا وصمم على قتل القيصر وعائلتهِ وبعث بتلغراف الى موسكو يقول فيهِ « ذهب سيرومولوتوف (من اعضاء المجلس الاجرائي) الى موسكو لتدبير العمل حسب اوامر المركز فلا داعي للقلق. اقنا يورفسكي بدل اقديف واوقفنا موشكين وابدلنا الحرس الداخلي بغيره ». وتاريخ هذا التلغراف ٤ يوليو

وفي ذلك اليوم أُوقف اقديف وموشكين وأُبدلا بيورفسكي وهو يهودي من اهالي اكاترنبرج فاحضر معهُ عشرة من الحرس كلهم تقريباً من اسرى النمسويين الالمان المنتخبين ليكونوا جلادين. وصار البيت الذي فيهِ القيصر في عهدة المجلس الاجرائي ومن ثم صارت حياة العائلة القيصرية عذاباً مستمرًّا وتقرر حينئذٍ قضاء عليها. وعاد سيرومولوتوف من موسكو ومعهُ الاوامر اللازمة وكان يورفسكي قد اخذ في تدبير ما يلزم لذلك فكان يركب كل يوم الى ضواحي المدينة يبحث عن مكان يلقي اشلاء القتلى فيهِ ويخفي آثارها حتى اذا عاد سيرومولوتوف وجد كل شيء معدًّا

ويوم الاحد في ١٤ يوليو دعا يورفسكي كاهناً لاقامة الخدمة الدينية لعائلة القيصر حتى لا يعتب عليهِ الروس بانهُ قتل قيصرهم من غير ان يزوده بخدمة دينية. وفي مساء اليوم التالي امر رجلاً يثق بهِ كل الثقة ان يأتيهُ باثني عشر

مسدساً من محلة الحرس ولما اتاهُ بها اخبرهُ انهُ حُكم على العائلة القيصرية بالاعدام ولا بدَّ من اعدامها تلك الليلة

وهنا ننتقل الى التفصيل الذي ذكرهُ الكتبة مكملاً في مجلة القرن التاسع عشر وقال انهُ مستخلص من شهادات كثيرين رأى بعضهم ما حدث برأى العين وهم متفقون في كل الامور الجوهرية

في نحو الساعة الاولى بعد نصف الليل دخل يوروفسكي غرفة القيصر وايقظهُ وقال لهُ ان جنود الاعداء ستصل الى المدينة قبل الفجر فخير لك ولعائلتك ان تنزلوا الى الدور الاسفل لانهُ قد تقع مناوشات في الشوارع ويحتمل ان يدخل بعض الرصاص من الكوى

فنهض القيصر من فراشهِ وجعل يتكلم مع يوروفسكي ومع القيصرة كلاماً لم يُسمع كلهُ ولكن سُمع منهُ قولهُ هلُمَّ اقتربوا الى هذا الحد ثم شكر يوروفسكي وقال لهُ أليس الافضل ان نأخذ امتعتنا معنا فاجابهُ لا ولكن يحسن ان تأخذوا وساداتكم . قال ذلك ودخل غرفة البنات وقال طنَّ ما قالهُ لوالديهنَّ ثم خرج ووقف في غرفة المائدة وكان فيها بعض الجنود وبنادقهم في ايديهم ومعهم غيرهم من الذين لبوا طلبهُ وجاؤوا حتى يتولوا قتل عائلة القيصر اذا احجم الجنود عنهُ. ولحظ الجنود القائمون على حراسة البيت من الخارج ان فيهِ شيئاً غير عادي فدخلوهُ ليروا ما هو جار . ولما أتم القيصر وزوجتهُ واولادهُ لبس ثيابهم خرجوا الى غرفة المائدة — خرج القيصر اولاً ثم امرأتهُ ثم ابنهُ ثم بناتهُ الاربع ثم الدكتور بوتكن والخادمة والخادم والطباخ وهم ١١ نفساً . وكان الضعف والنحول قد تولَّيا القيصر حتى لا يكاد يُعرف . وكان لابساً سترة حربية بلون الخاكي وبنطلوناً ازرق مثل بنطلونات الفرسان وجزمة عالية الساق وهو حاسر الراس . وكانت زوجتهُ قد قصت شعرهُ وشعر ابنها وقص البنات شعورهنَّ على غرارتها وجعلها تخلصاً من القمل وحشون بها موقداً مهجوراً . وقد وجدها الجنود البيض فيهِ لما دخلوا اكاترنبرج ورآها بعض اللواتي كن خادمات في البيت القيصري وعرفنها . وكان لتاتيانا كلب صغير تحملتهُ على ساعدها . وكان لاخيها كلب آخر والظاهر انهُ ادرك ما خبىء لهُ ولسيدهِ فهرب قبل ذلك . وبعد زمن وجدهُ ضابط من ضباط الجنرال توكن وجاء بهِ الى انكلترا فكان نصيبهُ خيراً من نصيب سيدهِ

يا لهُ من منظر تتقطر لهُ المرائر . ولد يكاد يكون كسيحاً وامرأتان لا معين لهما واربع بنات على غاية الرقة والدعة يحق لهنَّ ان يحسبن من اجمل البنات حتى في بلاد الروس المشهورة بجمال نسائها. وكان يقال ان الثانية منهنَّ تاتيانا ستكون ملكة الانكليز يوماً ما وقد كانت بارعة في آداب اللغة الروسية ولها فيها شعر حسن

وكان لابدَّ للجميع من النزول في سلم مظلم الى الدور الاسفل فامسك واحد من الجند مصباحاً ينير السلم ولكن لم يبادر احد غيرهُ لمساعدة النازلين . وكانت عادة التقدم في السير متمكنة من اعضاء البيت القيصري فاتبعوها حتى في نزولهم الى ساحة الموت الرؤام . نزل اولاً القيصر وزوجتهُ وهما يرتجفان كأنهما ذاهبان الى امام ملك جبَّار اعظم منهما . ثم جاء بعدهما ابنهما تحمله اختهُ الكبرى اولغا ثم اخواتها تاتيانا فاريا فاناستاسيا . ثم الباقون حسب درجاتهم وآخرهم الطباخ . ونزل بعدهم اناس من عالم آخر في مقدمتهم يوروفسكي السفَّاح عابس الوجه مشغول البال بما كان لازماً عليهِ من الفعل الفظيع يده في جيبهِ قابضة على المسدَّس ورجلاهُ تخطوان بهِ الى مجزرة الارباء. وبعدهُ الجنود وكان عددهم قد زاد بمن انضمَّ اليهم من الحرس . وهؤلاء وقفوا الى ان رأوا ان الغرض من حراستهم قد انقضى ومنهم الشهود الذين شهدوا بما رأوا

ولما وصل النازلون الى الدار السفلى سار يوروفسكي امامهم الى باب الغرفة المعدة للفتك بهم فدخلها القيصر حاملاً ابنهُ ثم القيصرة فبناتها فالدكتور بوتكين فالخدم. وقيل لهم حينئذٍ انهُ ستأتي المركبات لركوبهم والذهاب بهم . ولما رأوا ان اقامتهم في تلك الغرفة ستطول طلبوا كراسي يجلسون عليها فجيئوا بثلاثة كراسي فجلس ولي العهد على كرسي في وسط الغرفة وابوهُ على كرسي آخر الى يسارهِ ووقف الدكتور بوتكين الى يمينهِ وجلست امهُ قرب الحائط ووقفت واحدة من بناتها وراءها ووقفت اخواتها الباقيات مستندات الى الحائط. ثم دخل يوروفسكي يفتة ومعهُ سبعة من المحوِّمين الالمان واثنان من اصدقائهِ والمسدسات في ايديهم وليس بينهم جندي روسي وكان وجه يوروفسكي قد امتقع فاخرج ورقة من جيبهِ امسكها بيسراه والمسدس في يمناهُ وجعل يقرأها بسرعة . وهي امر من جمهورية السوفيات بقتل القيصر وكل اهل بيتهِ. وقد سمي في هذا الامر بنقولا رومانوف السفاح . وللحال صلَّبت القيصرة على وجهها وركعت وركع الباقون معها الاَّ

القيصر فانهُ بقي واقفاً وتقدم الى امام زوجتهِ واولاده كأنهُ اراد ان يقيهم بنفسهِ وقال كلاماً لم يُسمَع لان يورفسكي كان لا يزال يقرأ الامر بصوت جهوري تردد صداهُ جدران الغرفة . فادرك ذلك اللعين ان القيصر يريد ان يقول اقتلوني انا ولكن اعفوا عن زوجتي واولادي . وخاف ان يؤثر كلامهُ في الجنود فرفع يدهُ باسرع من البرق واطلق الرصاص على القيصر فاصاب رأسهُ فوقع لا يبدي حراكاً وكان ذلك اشارة الى الجنود فلم تمضِ خمس دقائق حتى امسى الجميع جثثاً هامدة ما عدا تاتيانا وخادمتها فان تاتيانا جرحت واغمي عليها (١) ووقف كلبها فوقها ينبح الى ان قتلهُ واحد من الجند . ثم افاقت وجعلت تصرخ اباهُ اباهُ فهجم عليها اولئك الوحوش وطعنوها بحراب بنادقهم وشجوا رأسها بقنادقها والخادمة جعلت تتقي الرصاص بوسادة في يدها وهي تهرب من جهة الى اخرى الى ان سقطت قتيلة . والذين كانوا واقفين امام الباب وشاهدوا ذلك المنظر الفظيع تعذر عليهم وصفهُ لفظاعتهِ وسقطت المصابيح من ايديهم فانتهبت وامتلأ المكان دخاناً اصفر يتخللهُ وميض بارود البنادق . وظهر للرائين كأن الجنود جنُّوا من الغيظ وسكروا من الدم فجعلوا يطعنون القتلى ويفضخون جماجمهم (٢) . قال واحد من الرائين ان المنظر بلغ في فظاعتهِ مبلغاً تجيش لهُ النفس حتى كدت اُغمى عليَّ واضطررت ان ابعد واستنشق الهواء

وكان الرصاص يصيب الجدران ويرتد عنها فاصابت رصاصة منهُ يد يورفسكي اليسرى وقطعت ثلاثاً من اناملها فتقدم واحد من الجنود وربط يدهُ بمنديلهِ وكان ذلك قبلما افاقت تاتيانا كما تقدم . والارض خشب وقد وجدت فيها آثار سبع عشرة طعنة ووجد في الجدران ست عشرة رصاصة ووجدت في الارض رصاصات اخرى والظاهر ان بعضها خرق الاجسام قبلما خرق الارض او غار في الجدران

واتى حينئذٍ بالملآت من الفرش ولفت بها الجثث وحملت واخرجت من باب المطبخ الى المركبة (لوري) القائمة امامهُ في انتظارها وكان امام باب الدار اربع مركبات اخرى (٣) . والمركبة التي وضعت فيها الجثث وضعت فيها ايضاً الوسائد

(١) اما الدكتور جيار فيقول ان التي جرحت واغمي عليها هي الاستاسيا لا تاتيانا

(٢) فضخ الجمجمة كسرها (٣) وكلها من نوع الاتوموبيل

الملطخة بالدم وجثة الكلب حتى لا يبقى في البيت اثر لهذه الفظائع . وكان يوروفسكي يعلم خطارة الجريمة التي اقدم عليها ولذلك طلب من اعضاء المجلس الاجرائي ان يعضوا كلهم الامر بقتل القيصر واهل بيتهِ واخذ هذا الامر بيدهِ الى موسكو واطلع لنين عليهِ فنظر اليهِ وتهانف (ضحك ضحكة الاستخفاف) على جاري عادتهِ . وكان يوروفسكي يعلم انهُ من شعب يكرههُ اكثر الروس وان حولهُ مئة مليون وكل واحد منهم يحسب قتل القيصر جريمة دينية كما هو جريمة سياسية ولذلك قال قبلما ارتكب ما ارتكب انهُ سيلاشي جثث القتلى حتى لا يبقى لها اثر . فطلب من مدير المهمات ان يرسل اليهِ خمس مركبات من نوع اللوري وبرميلين من البترول واشترى هو مقداراً كبيراً من الحامض الكبريتيك (زيت الزاج) لكي يحل ما لا تقدر النار على حرقهِ من جثث القتلى ومع ذلك لم يستطع ان يلاشي تلك الجثث ويمحو آثارها

وبينما كانت الجثث تنقل الى المركبة كان هو مهتمًا بتنظيف اصابعهِ وربطها وكان جرح يدهِ واضطراب افكارهِ قد اثرا فيهِ تأثيراً شديداً يوجب عليهِ تطلب الراحة. فالح عليهِ اعوانهُ لكي يذهب الى بيتهِ اما هو فاصرّ على الذهاب مع المركبات والوقوف بنفسهِ على كيفية ملاشاة الجثث ومحو آثارها حتى لا يبقى شيء منها شاهداً عليهِ . وجعل يقسم الاقسام المغلظة ان لا بدّ لهُ من اتمام عملهِ الى آخرهِ وانهُ لا يستطيع ان يوكلهُ الى احد لانهُ لا يثق باحد

وقد اختلفت اقوال الشهود في الساعة التي سارت فيها المركبات والاكثرون على انها الساعة الثالثة بعد نصف الليل والمؤكد ان يوروفسكي واربعة من رفاقهِ ساروا فيها ومعهم جماعة من الجنود . ولم يكن في الشوارع احد حينئذٍ غير الحراس وكان هؤلاء الحراس قد أُمروا ان لا يدعوا احداً يسير في الشوارع او يخرج من بيتهِ وان يقتلوا كل من يخالفهم

ولما وصلت المركبات الى المكان المعد في الغابات نزل الجنود ووقفوا حولهُ كالحراس على نحو نصف كيلو متر لكي يمنعوا كل احد من الدنو منهُ . واتفق ان رجلاً من سكان القرى المجاورة كان آتياً الى اكاترنبرج فرآهُ الجنود في اثناء الطريق فاوقفوه ومنعوهُ من السير ومن الرجوع الى بيتهِ ايضاً ولكن لما ابعدوا عنهُ عاد الى بيتهِ واخبر اهل القرية بما رأى فخرج كل من كان جريئاً

منهم وطافوا في الغابة الى ان وصلوا الى الحراس فخافوا وتكعكعوا على اعقابهم راجعين الى قريتهم فوقع الرعب في القرية لان اهلها كانوا قد آووا ضابطاً من جنود القيصر وتعرضوا للعقاب الشديد وكان مراد هذا الضابط ان يتصل بعائلة القيصر فخافوا ان يكون القصد من هذه الحركة القبض عليهِ وطلبوا منهُ ان يغادر قريتهم وينجو بنفسهِ . فاقنعهم انهُ لو كان هو المقصود لاتت الجنود الى القرية نوًّا ولكنها لم تفعل بل عرَّجت الى جهة اخرى . فسكتوا عنهُ لكنهم بقوا خائفين موجسين شرًّا يرقبون ما يحدث . ثم رأوا ناراً اضطرمت في الغابة وعلا لهبها في الجو فاخذتهم الظنون والهواجس وحسب بعضهم ان البلشفك يضحُّون ضحايا بشرية لمعبوداتهم

ومضى اليوم الاول والثاني والثالث والجنود في الغابة وقلق اهل القرية يزيد وهم لا يجسرون ان يفعلوا شيئاً واخيراً جاءهم واحد وقال لهم ان الحمر ذهبوا كلهم فمضى الضابط وجماعة من اهل القرية الى حيث رآهم الرجل الاول فوجدوا هناك طريقاً ممهَّدة حديثاً الى قلب الغابة فساروا فيها الى ان وصلوا الى بقعة فيها كومة كبيرة من الرماد حولها بقايا الواح واغصان وقطع حطب محروقة فجعل الضابط يذري الرماد بعصاهُ ورفاقهُ يبحثون فيهِ فوجدوا اولاً صليباً مالطياً مرصَّعاً بحجارة خضراء . فلما رآهُ الضابط امتُقع لانهُ يعلم ان هذا الصليب وسام لا يحق لاحد ان يتقلدهُ الاَّ اذا كان من البيت القيصري وفي مقام رفيع جدًّا . فصرخ عفوك اللهمَّ احرقوهُ حيًّا . وقبل ان يتمالك نفسهُ كان الذين معهُ قد وجدوا اشياء كثيرة مما يختص بملابس النساء مثل اضلاع المشدات والابازيم والصرامي والازرار والخرز ونحو ذلك مما يدلُّ ان الذين حُرقوا هنا رجال ونساء . فرفع نظرهُ الى السماء وقال ارحمنا يا رب احرقوا العائلة كلها

واتضح اخيراً من الآثار التي وجدت وهي كثيرة جدًّا ومن شهادة الشهود انهُ لما وصل بورتسكي ورفاقهُ الى تلك البقعة قطَّعوا الجثث ووضعوها على الحطب وصبوا عليها البترول واضرموا فيها النار فاحترقت وما لم يحترق من العظام صبوا عليهِ الحامض الكبريتيك حتى انحلَّ . واقاموا هناك ثلاثة ايام يدأبون في هذا العمل فصبوا اكثر من ٣٠٠ لتر من البترول و٧٥ كيلو غراماً من الحامض الكبريتيك ولما انتهوا من عملهم جمعوا كل ما استطاعوا جمعهُ من بقايا النار

وطرحوه في بئر معدن هناك. وقد شهد شاهد ان يورفسكي كان يخاف من قيام اهل المدينة عليه فلما يتم عمله فاقام الحراس على البيت الذي كان فيه القيصر ليوهموهم ان العائلة القيصرية لا تزال فيه. ولما تم عمله نشر في المدينة منشوراً خلاصته انه علم ان جنود التشك سلوفاك تتهدد اكاترنبرج عاصمة اورال فينجو السفاح المتوج (يعني القيصر) من يد القضاء لانه كشفت مؤامرة لانقاذه ولذلك حكم مجلس البلاد ان تنفذ ارادة الشعب بقتل نقولا رومانوف القيصر السابق الذي سفك دماء كثيرين من الشعب ونفذ الحكم عليه في السابع عشر من الشهر اما عائلة رومانوف فنقلت الى مكان امين »والحقيقة ان القيصر لم يحكم عليه بل لم يحاكم وقتل هو وعائلته كما تقدم

نشرنا منذ عهد غير بعيد تاريخ بلاد الروس ووصفنا انواع العقاب التي كان يعاقب بها الناس وكلها مما تقشعر منه الابدان. واي عقاب افظع من ان يُسلخ جلد الانسان وهو حي. ولكن سلخ الجلد كان من العقوبات الشائعة عندهم حينئذٍ. وكنا نظن ان الاديان والعلوم والفنون التي انتشرت في هذا العصر ازالت الطباع الوحشية من الناس فاذا طباع السوء مخبوءة تحت غشاء الصرن فلما ثارت هذه الحرب مزقت الغشاء عن نفوس كثيرين فاضوا كالوحوش الضارية. فان يورفسكي هذا من الذين اذا دخلت بيوتهم ورأيت اولادهم حسبتهم من ارق الاوربيين. ولعل اعوانه كانوا مثله لكن تعليم اولادهم اللغات والفنون وتأنيث بيوتهم بما يدل على الرفاهة والترف وادعاءهم انهم يعملون لمصلحة الشعب كل ذلك لم يغير طباع السوء المغروسة في نفوسهم فثار ثائرها حالما أطلق لها العنان

والناظر في شؤون الاجتماع قد يقول في نفسه تُرى ايُحتمل ان تمضي هذه الموبقات الى نفع كبير يمحو آثارها وينسي الناس تذكارها. والجواب ان تاريخ البشر بل تاريخ كل الاحياء جارٍ على سنن واحد نرى فيه تحليلاً وتركيباً موتاً وحياةً. تدفن حبة الحنطة في الارض فيُبعث منها نبات كثير السنابل والحبوب. ثارت الثورة الفرنسوية بفظائعها فدكت صروح الاستبداد ومتعت الشعوب بالحكم الدستوري. فان كان مستقبل بلاد الروس عمراناً ارقى من عمرانها السابق يقوم على ما حلّ فيها من الخراب وما سفك من دماء الابرياء فتكون قد جرت على هذا الناموس العام ناموس الخراب قبل البناء ويحمد اهلها عند الصباح سراهم